

رجال .. في الزواجر!

قصة بقلم غادة السمان

ناثية الجدران .. وفيه من مذلة اخواني الثلاث اللواتي تزوجن بعد ان زارتنا « خاطبة » ثرارة تشبه الساحرات ..

مازلت مفروسة امام النافذة!

انفاس امي وابي التكايلة تنهاري فوق الزجاج البارد .. خبيسة مريرة تلقف من احساسي البهم بالذنب والمار .. الاحساس الذي تضخم مع امتلاء قامتي وتغذى من ضيق ابي المهين وتجهمه ..

ارجو الا يتأخر اخي كعادته كل ليلة .. اخي .. الرجل الثاني في حياتي .. رفيق دربي اربع مرات في اليوم وحارسي الامين انشاء ذهابي الى مدرستي الثانوية .. « لامانع من ان تظل في المدرسة مادام ليس فيها اساتذة شباب !! .. » .. لافرق لدى ابي سواء نجحت او رسبت .. درست او اهملت .. المهم انتظار الرجل الذي يخلصه من مصيئته الرابعة المفروسة امام النافذة .. مني انا!

وانا مازلت انتظر مرور الهي المسوخ!

الذكريات المؤلمة ترقص على الزجاج امامي .. تقفز منه لتنهش مسن هدوني .. وارى يوم انتهت سنو دراستي الثانوية وسجنت في الدار .. ارتدي ثوبي الاحمر الضيق ، واعرض على الخاطبات رشاقتي .. ادور امامهن واحلم بالعاصمة الملونة .. بجامعة فوارة الشباب ، نهبت حيويتها وصخبها وانارنها من منابع الشمس .. مقاعد طويلة تزدهم بالشبسان والفتيات .. ايام تزخر بحياة حقيقية الامتلاء .. محاولة وخيبة ، نجاح وفشل ، حرارة تجربة ونشوة نصر ، خطأ وضياح وايمان .. متناقضات من ليونة حقيقة وصلابة وهم .. احلم بكلية الطب التي شفقت بها حبا ، اخلق من الاوهام زملاء اقف امامهم في فناء الجامعة بشبابي المتشمسة ، نظيفة الوجه ، مقفوضة الشعر ، وقد فردت كتفي وشددت صدري الى الخارج .. لماذا لم اجرو يوما على ان ابوح بهذا كله لابي؟؟

صوتي الذليل الذي رجونه به كي يسمح لي بالذهاب الى دمشق يرتعش الان امامي في زجاج النافذة .. دوائره المتسعة تضيق وتضيق حول عنقي فقدميه : « ابي .. ارجوك .. اعني هل من الممكن .. اقصده .. هل يمكن ان احلم بالذهاب الى كلية الطب .. » .. كم كان جوابه مختصرا وبليغا : صفقة على خدي ، بصقة الى الارض .. وتخبسط الحلم الذهبي بين سنابك واقعي ..

مازلت مفروسة امام النافذة انتظر مرور احمد بينما صوت « نارجيلة »

ابي الكسول ينهش من اعصابي بيظه محموم .. فاحس الجمر في حلقي .. والدخان في عيني وانفي ، كم تزيئت وتسملت الى هذه النافذة في وضع النهار منتظرة مرور احمد .. اعرض عليه مفاتيح بقدر ما تسمح النافذة الضيقة ورعبي من ان يضبطني ابي .. كم تاوهت وانتحيت .. ابتمتت وغمزت « حركات تثير اشمئزازي ولا املك سواها » حتى احس بوقفتي بعد اشهر من عذابي ، واضحى يتكرم برفع حاجبيه قليلا ريشما يرشقني بنظرة فخور ، ثم يعود الى مشيته القوية .. ولا املك الا ان احبه ..

واحبته مبهما مشيرا .. واحبته شبعا تحوك امي وجاراتها اساطير طويلة عنه .. خيالا لا اعرف عنه سوى جسد غامض يتحرك ليلا في الزقاق الضيق ، يفسله نور الشارع .. ضوء يتفجر من ركبتيه ، يتلوى بقبضة عند خصره ، يرتد عن صدره العريض ليعود ويضم رقبتيه .. احبته وهما نائبا ساحر البعد .. مدينة عجيبة الالتماع ، لم يسمح لي بالدخول اليها ورؤية ابوابها المهترئة عن كعب ، فطلت اعبدها مضيئة

مازالت مفروسة امام نافذة غرفة الجلوس وقد الصقت جيبني بزجاجها البارد ، منتظرة مرور رجلي كعادته كل اسبوعية .. الشتاء ينسل في عروق بلدي المنزلة ، الزقاق الضيق الطويل مثبت باهمال تحت اسياع الظلام التي سلخت كل اثار الشمس المربضة .. البيوت المحشورة على جانبي الطريق تكس ظلالها المتعبة الباهتة في برك النور المتجمدة ..

بعد قليل يمر الهي المسوخ ! الرجل الذي عبدته دون ان اعرف عنه شيئا ، وانتظرت مروره مرتين عند هذه النافذة كل يوم .. « نظرائي النعمة تتسح بكفنيه ورفقته وتتوسل اليه بهوان ذنب الياف ان يقصرع الباب ، ويدفع لمن الشباب ، ويحمل الى داره طفولتي » .. انه الرجل الثالث في حياتي ..

ظل ابي الرجل الاول حتى كدت ابلغ الرابعة عشرة .. ظل ينتزعني من مسالك الشمس في ارضفة زقاقنا ويحملني بين ذراعيه العائيتين مدلا حتى صبيحة ذلك اليوم المشؤوم .. احس وهجه في اضلعي وكانه لم يمض على انصرامه خمسة اعوام كاملة !! .. كنت اقف على اطوار هذه النافذة بالذات ، امسح زجاجها بحيوية اربعة عشر عاما ، ثوبي الحريري يكاد يتمزق عن جسدي .. الفجر الوليد ينسكب من صدري وزندي .. كذات اعلم بحماس كي لا اتأخر عن موعد مدرستي .. ادندن باغنية حائلة تحكي قصة فراشة ظلت تناضل حتى تقبت شرقتها المهترئة وانطلقت مرحلة تنازل نجوم السماء .. لا ادري كيف حانت مني التفاتة ورايت ابي يقف امام باب الفرفة مشدوها .. نظرائه عاقلة بصدري حيث انقض برعمان منمردان ، يدفعان الثوب بتحد .. بقوة الحياة .. بوحدية فطرية .. بصراحة بريئة الفجور .. تشنجت نظرائه هناك ولاح فيها صراع قصير الابد ، ثم استقر تعبيرها وتبدى فيها بعض من رعب خفي وحقد مبهم غريزي .. وكانه كان يسمع الصدر البكر صارخا متحديا : « لا يمكن ان تظل دميكت المدللة الى الابد .. الا ترى انها امرأة ؟ هي جدتك التي كان ينهرها ابوك ، وامك التي كان يضربها ، وزوجتك التي تجفف لك كل ليلة قدميك ؟ .. »

.. لحظة مشحونة مربعة انتصبت بيننا وافسدت ماسبق من ودنا وتقاربنا .. سحب ضبابية سودها تعاقب الاجيال ضجت ونازت في دمه حتى ابتلمت الحنان والاطمئنان في العينين .. عاصفة غبار نتن هبت عن قبور سحرية .. عربدت ذراتها وتاججت بيننا .. حجبت عني دفاء مخبته وقتته .. جليد حقد مبهم تطفل على البسمة العنون وظل كالمعلق يمتص من صفاتها حتى احوالها الى تكسيرة مقبنة تفور بالاستهتار والتحامل على انوثتي .. حدث هذا كله في اقل من ثوان .. في النقاء نظرانا .. وشعرت بايحاء مكهرب !

انني اتيت جرما منكرا ! ان مجرد كونني امرأة عار لايفتقر .. ان في صدري وبروزه خيانة لصداقتي مع ابي ..

ودون وعي مني ، فوست كتفي الى الداخل ، وكانني استطيع اخفاء صدري عن اسع نظرائه ، رميت بالفرشاة ، ففزت عن النافذة وانفقت هاربة الى غرفتي ، ابكي دون ما سبب واضح فنحن لم نتبادل اي حوار !! .. لكنني فهمته جيدا كما فهمني ..

مازلت واقفة امام النافذة ، صدري يضج بعويل مبهم الانات نار واستيقظ منذ ذلك اليوم المشؤوم .. فيه بعض من صرخات طفلسة مؤودة في عصر ما .. وفيه بعض من نحيب امي المختلس في غرفة

نيراني وثورتى وتمرد اوهامي .. وانا اهرب واهرب من صقيعي اللذيل الى عالم خيالي .. الى شبح رجل كان يتحرك كل ليلة في الزقاق الصيق .. تمزق مسامير حذائه الصمت بينما تنشق النوافذ على الصفيح قليلا .. تنحشر وراءها رؤوس نساء ذليلة .. تتدلى نظراتها الى الشارع كالسنة كلاب مسعورة اللهاث .. وتظل نظراتها تعلق كنفه وشفتيه وركبته وخصره .. تسجد لرائحة الرجولة المنبعثة حتى من موطىء قدميه .. وتظل اوهامنا تحرق البخور لاي رجل يمر .. لسر الأسرار .. للفرق المطلق الكثير .. للنبأ المدهش : رجل في الزقاق !! .. وهكذا أحببت احمد منذ توخجت سني دراستي الثانوية بالصلمسة والبصقة .. منذ افصحى الزقاق الضيق عالي ، صهدي ، ترابه المقدس يظاه رجل ليس بابي ولا أخي . رجل قد يدق بابي ويجرني الى هيكله الفاض .. هكذا أحببت احمد ! .. فارسا اسطوريا اجلس وراءه على جواده المسحور وأطوق خصره بذراعي ، بينما يطير بي الى ليل مسن سحر الف ليلة وليلة .. الى حيث المجهول .. وانا اهوى والخصسى المجهول ، ،

لماذا تأخر الهي المخطم الليلة ؟

اريد ان اراه .. ان اتسقى من نفسي برؤيته !! .. اتسقى من اشهر قضيتها احلم بكتفيه العريضين ومشيته المبهمة ، ارمقه واضاحكه ، ادور امام امه كلما حضرت خاطبة مراقبة ، اعرض عليها مفاتيح وذلي واستسلامي ، منتظرة ان يحضر ذات ليلة ليشتري جدائي ويشدني منها الى داره .. اريد ان اتسقى من ذلي وعاري .. ابي يتنحج في مجلسه وبلكر ابي بطرف قدمه .. يتوقف شخيرها المنقطع وتسال : « ماذا حدث ؟ » .. يجيبها بخشونة « قولي لابنتك ان ترتدي ثيابها بسرعة .. سيحضر احمد مع امه الليلة لقراءة الفاتحة!!! » انظاهر بان كلماته لاتعني .. لاتحملني في دوامات من جمر تنن وشوك اجرب .. ويخيل الي ان في عبارته رعشة خوف مبهمة وكانه يسود التخلص من النبا بسرعة ، كمجرم يحمل قنبلة مدمرة ويريد ان يرمي بها وينتهي .. امي تنهض لترتدي ثيابها ، وانا هنا ، تمثال من برود امام النافذة يزداد انكماشاً وتجمداً ..

ها هو ذا احمد يلوح في اخر الزقاق بينما تدب امه بجانبه .. انهي فنلذ .. التحرك الى احد اطراف النافذة واتكوم باشمترال ، اشواكي تنتصب جادة متحدية .. جو الغرفة مشحون بانفعالاتي الكارهة .. فامته تقترب في الزقاق وانا ازداد انكماشاً وشماتة بنفسي .. النور يتفجر من ركبتيه .. يتاوه عند خصره .. يرتد عن صدره العريض ثم يسدور بشدة حول رقبته .. وهو يسير بثقة قاسية .. مسامير حذائه تزحف على وجهي في كل خطوة ... القيد ينفرس في لحمي كاوي البرودة ..

صدر حديثا :

لهات الحياة

مجموعة شعرية وجدانية

للدكتور يوسف عز الدين

دار العلم للملايين

غامضة لذيدة الرغب .. أحبيته جزيرة مرجان صباوية غارقة في بحار فيروزية .. وانا على الشاطئ القفر .. تشدني اليه نظرات ابي وذعر امي .. ولا املك الا ان اعبد المرجان . انشد من ابخرة الوهم ترانيل اشجى من انين عرائس البحر .. لو تركت اخوض في اللجة الفيروزية .. اجرب برد الماء وفذارة الماء ووعر الجزيرة .. لو كان لي بعض حريتي لادركت منذ زمن طويل ان احمد الذي سحرني بشاربيه الرفيعين رجس متزوج وشبه امي ! .. وان هوايته تحبب النساء .. ولجنبت اللوحة البلهاء يوم جاءت امه تخطبني زوجة نالمة بعد ان سحرته غمزاتي ، و اشاراتي السخيفة عند هذه النافذة !! .. يومئذ استيقظت من الحلم الكريه وفوجئت بواقع اشد كراهة ! احمد غني .. و ابي لا يجد مانعا من بل ويصر - على زواجي منه ! ،

الخواطر المؤلة تفيض من جوارحي ، وكل شيء يلوح الليلة غريباً مهزوزاً لعيني .. القفر يرتجف .. يود ان ينطق مذغورا الى حيث يفرق في شمس ما يضيغ .. يتلاشي .. لكنه مفيد هنا في كبد سماء الشتاء .. يرتجف ذليلاً زائغ الظلال .. ينثر فضته مكرها ، ذله واستسلامه يشيران حقدتي واشمترال .. يجب ان اهرب بنفسي .. ان احطم سلاسل تشدني الى شرنقة مهترنة .. يجب ان اكون طيبة .. اتوق الى الارتواء في الحياة .. بالنييران هذه الغرفة .. انها تتاوه بردا .. تحترق دون ان تضيء .. ترمي ظلالها المتعبة على وجه امي القابعة الى جانبها كتيبة اللؤلؤ .. وعلى عيني ابي القاسيتين اللتين احس انه يفرس نظراتهما في ظهري كي التفت اليه ، انفاسه المتسارعة توحى بانسه يود ان يحدثني ، لكنني ساصمد .. لن التفت هذه المرة الا اذا ناداني باسمي .. لم اسمعه وهو يلفظه منذ زمن طويل .. حتى لو ناداني .. فاني لن اجرؤ على النظر في وجهه ، فانا ارى خلال رعيي كل مافي الغرفة ، واشعر بتيارات القصب المتوهجة من مسام وجهه المتفتحة وادواجه التهذجة ..

انها الثامنة واخي لم يعد بعد !! .. اعرف ماسيحدث بعد ساعات عندما يتنصف الليل ويدخل مترنحا .. يشور الوالد كالمعادة ، يتهجم عليه جاهلا او متجاهلا انه سبب مأساته .. تكبي امي وتندب حظها الذي ابتلاها باربع بنات وشاب وحيد خذل زوجها الذي يريد ان يكون ابنه طبيبا .. ينتهي الشجار بسرعة بعد ان تتلقى امي بعض الصلعات الموجهة اصلا الى اخي .. واتمرق انا في الركن المظلم ويخيل الي انه يتمدد ان تسقط ضرباته على وجهها هي ، وانها اصبحت تفهم ذلك وترضى به في استسلام .. بل اني اشعر ان اخي يدرك ذلك كله وتفتحت اعماقه بقدر ماتسمح لها ابخرة الخمر بذلك ثم يذهب كل الى فراشه .. وتنام امي كان شيئا لم يكن ! .. ويقضي ابي صبيحة اليوم التالي متوسلا الى اخي تارة ومتوعدا تارة اخرى ليقتعه بالذهب الى كلية الطب .. ويظل اخي مصرا على دراسة الموسيقى او البقاء عاطلا هكذا .. وتعلو الاصوات بينما انا في الركن المظلم حيث نسيت الشمس ان تشرق .. اموت شوقا للثوب الابيض والمخبر ورائحة الكتب السمكية .. تدبح امام عمري فوق عتبة النافذة .. واخي مشرد ممزق يدفن عذابه فيسي الخمرة وفي شوارع البلدة النائية وصدى يلاحقه « انا .. ماعندي بنات دكاترة ولا اولاد مزبكاتية .. »

مازلت انتظر احمد امام النافذة .. احاول عبثا اخفاء رعشتي وانا احس نظرات ابي تنفرس حادة في ظهري .. تنفذ ببرودها الى عظامي .. تختلط بقضرات دمي المذعورة .. برد متعفن القدم ينبع من كل مكان .. من الجدران الصدئة .. من جزر اكلة لحوم في العيون .. من الاسفلت الرمادي الكتيب .. من صرخات ابي وذل امي وهي تحضر له الماء الساخن .. تجفف قدميه بيديها . احس البرد المتعفن يتدفق من اطراف اصابعها .. يتكدس عند قدميها .. برد ازرق مريض ينسكب من اجبال نجش على صدرها .. يتدفق غزيرا .. يتدفق من النوافذ .. يملأ البلدة ويغمر زقاقنا .. يرتفع ويرتفع حتى يكاد يخنقني .. يطفىء

اريد ان اهرب .. ابي يقف امامي وفي يده صغعة وعلى شفثيه بصفة ..
اريد ان اهرب .. ابي تجفف قدمي ابي والبرود ينسكب من اصابعها ..
اريد ان اهرب .. البرود ينسكب من اجبال تهول في صدرها .. يفمر
الفرقة ، يفمر الزقاق ، يفمر حنقي ونهردي ويجمد ثورتي .. احمد يقترب
.. مسامير حذائه تنفوس في ملائتي خطوة اثر خطوة .. رؤوس النساء
تنحشر وراء النوافذ ونظراتها تلعق موطيء قدميه ..

جاء في موكبه الربيع بعد ان نادته ليالي وليالي بعينين معصبتين ..
انه يقترب .. انه يقترب وانا مازلت واقفة ، كتلة من صقيع ..
لماذا لا يتحرك الصقيع الابله في ذرات المعادن والاجسام الساكنة ؟
يتناثر نلجا ناصعا .. فلجا يفور بعنف في الشوارع .. بصراحة ..
بعمري منهل الصدق مخيف البياض ؟ الباب يفرع ، ابي يصرخ « ارتدي
ثيابك وتعالى .. وصل احمد واهمه ! » ..

اركض الى غرفتي ، السام المتمرد يتناثر تحت اقدامي ، احشر صدري
وردفي في ثوبي الاحمر الذي اعدته ابي ضيقا مثيرا لارتديه كلما جاءت
خاطبة .. ارفع خصل شعري بينما يتدفق في كل شعرة تيار الم مريسر
اللؤلؤ .. اقف امام المراة .. اربق رقبتي البيضاء الشاحبة كعذراء
مقتصبة .. انحسس باسف كتفي وساعدي ..

امي تفتح الباب فجأة صائحة : «الم تنتهي بعد ؟ احمد يريد ان يراك
قبل ان نتفق على المهر ! » .. اسير وراءها بذهول .. ابي .. ابي .. ابي
تصرخ اليوم وتتمهر .. نسيت كيف اشتراها ابي ذات مرة .. لتسكبنا
على الارض بلا احساس بالخلق والابداع كاية الة تفريخ .. وانا ايضا
.. علي ان افنتع واقنع . ان اصمت واقدم ..

ادخل غرفة الربيع ، يجلس في احد الاركان احمد وابي يتسامران ..

شكله يختلف كثيرا عن رجلي المتخطر في الزقاق . انه كربه المنظر ، كربه
الرائحة ، كربه البرود !! .. يذكرني بالمقبرة في الجانب الاخر مسن
البئسة .. نظرة ابي القاسية تنسكب فوق رأسي ، انبي ادور امام
الرجل متظاهرة بتقديم كأس ماء .. اعرض عليه غنائه .. عيناي تهرخان
به : ارفع الشمن .. الا ترى الخصر النحيل ؟ ارفع الشمن ! .. الا ترى
عناقيد المطر الشفافة وسلاسل الليل ؟ .. ارفع الشمن ! .. فانا ذليلة
لا اتور اذا عرفت انك تخون .. وانا سابكي ذات يوم اذا مرهت ، لاخوفا
عليك ولكن خوفا من ان اموت واولادي جوعا .. وسانتحب بصمت اذا
ما هدت ذات ليلة وحمرة شفاه رخيصة تلتفخ قميصك .. فالمفروض اني
غبية ومطيعية .. ذكائتي يتوقف عند مساعدتك على خلع حذائك ، وصلني
بك تنتهي عند حافة فراشك حيث تخرج انت الى عالمك .. عالم الرجل
.. وانا ادرك هذا كله فارفع الشمن !! ..

نظراته مازالت تنبش الثوب الضيق .. تنفوس في اللحم الطسري
حيث اوزن ببرود لا انساني .. بعد دقائق وانضم الي ابي وجدائي ،
اجتر همسات الزقاق الضيق ، والعق باوهاي اجساد العابرين ..

للمرة الاخيرة انظر في عيني ابي غاضبة مستنجدة .. يصعقني بريقوما
الوحشي كلما دق بابنا خاطب .. يخيل الي اني رايتته في الف الف
جيل ولدت فيها قبل ان اولد هنا .. رايتته منذ اكثر من الف عام في
الصحراء .. بينما كانت عباءة ابي تطير وراءه ومخالبه المشرة تنبش
الرمال وتحضر لواد سنواتي العشر ! واره الان وانا اكساد ادفن
في صدر رجل مجهول ..

صوت ابي يوقظني : « انها موافقة ، وصمتها الذي تراه مظهر
خجلها » واهوي من جديد .. ساكون لهذا الرجل مدى الحياة ..
شفاه كل من في الفرقة تدمدم .. لعلهم يقرأون الفاتحة .. وانسا
اسحق بين مد الدوامة وجزرها ..

الآن ادرك ما الذي كان يدفع بجارنا الى العسودة كل ليلة بقميص
ملطخ باحمر شفاه رخيص .. انه يجد عند الاخرى قذارة .. ولكنهما
عارية .. صادقة العري ، فاجرة البوح بالشر الحقيقي .. وهو يفضل
هذا كله على فضيلة زوجته المكروهة الزينة ..

انفجر البركان .. انسكب المطر ... هدرت السيول .. انهض والشر
يتظاير من مسامي وشعري وانا ملي .. نظرات ابي المنعورة تستوقفني قبل
ان اخرج من الفرقة صارخة « لن اتزوج من هذا الرجل .. اريد ان اتم
دراستي » .. احمد يتضائل امامي .. يتضائل .. يستحيل السى
قزم .. يتسلل من دارنا مع امه ، وانا اردد بلثة محمومة : اريد ..
اريد .. للمرة الاولى اتجرا على ان الفظ كلمة « اريد » !! ..

امي وزوجها ينظران الي بذر ولا يقويان على الكلام .. ذلي التمرد
عقد لسانها .. حنقي المسعور ايقظهما وانا اردد : « ساذهب غدا
الى الجامعة » ..

يخيل الي ان ابي قد ينهار الى الارض في احدي نوباته القلبية ..
احبه .. اتمنى ان اغسل عن وجهه غبار التعب .. لكنني لن افعل ..
لن اتراجع هذه المرة .. يجب ان يكون هنالك ضحايا .. يجب ان
اتحرك ... ان يتدفق سيل من الانوار الدافئة .. يتراجع امامه الصقيع
الازرق .. واهتف بابي : « امنحني ثقتك وبركتك .. فلا مفر من
ان اذهب الى الجامعة يا ابي .. »

وينسحب من الفرقة وقد احنى رأسه اكثر من عادته .. وامي تتجمعه
الى حجرتهما صامته وفي ركن عينيها رضى خفي وسعادة مبهمة ..
بينما اتجهت انا الى النافذة الزجاجية لاحلم بالارواب البيضاء
ورائحة المخابر .

غادة السمان

دمشق

قربا جدا

انا وسارتر والحياة..

اروع ماكتبته المفكرة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

اجمل قصة عاطفية تربط بين اثنين من

اعظم ادباء العالم المعاصرين

ترجمة عائدة مطرجي اديس

منشورات دار الاداب